حولية كلية البنات
بجامعة عين شمس

العدد التاسع

مطبعة جامعة عين شمس
١٩٧٧

● الأستاذة الدكتورة رمزية الغريب [رئيس التحرير]
● الأستاذ الدكتور على الحديدى [سكرتير التحرير]

المحتــــويات

صفحة

١ ـ قضـــايا أدبيـــة
للأستاذ الدكتور على الحديدى ١

٢ ـ تجربة شاعر (دراسة لفن بشار)
للدكتور مصطفى الصاوى الجوينى ٣١

٣ ـ (من التراث اللغوى) فائت الفصيح لأبى عمر الزاهد
للدكتور عبد العزيز مطـــر ٥٣

٤ ـ شعراء اليهود فى الجاهلية وصدر الاسلام
للدكتور أحمد محمد النجار ١١٣

٥ ـ أضواء على بعض نظريات النمو
للدكتورة عنايات يوسف زكى ١٦٧

٦ ـ تطوير التعليم وبناء مجتمعنا الجديد
للدكتورة نازلى صالح احمد ١٨٣

٧ ـ المشكلات التعليمـــية لتلاميذ الصف الثالث بالمدرســـة الثانوية
وعلاقتها بالتحصيل المدرسى
للدكتور سعد يسى زكى والدكتور فؤاد سليمان قلادة. . ١٩١

٨ ـ استخدام برامج التليفزيون التعليمية فى المدارس الثانوية
للدكتور سعد يسى زكى ٢٤٥

٩ ـ بعض المواقف السلوكية الصعبة التى يواجهها أطفـــال الحضانة
والمدرسة الابتدائية كما يراها الآباء
للدكتور حامد عبد العزيز الفقى ٢٧١

قضايا أدبية

للدكتور على الحديدى

---

(١) الاسلام بعث جديد للأدب العربى .

فى العصر الجاهلى كانت الأمة العربية أمة شعر ، لها حياتها السياسية والإجتماعية والعقائدية الخاصة تعتمد فيها على العاطفة والشعور أكثر مما تعتمد على العقل والمنطق . وتندفع بهذا الشعور إلى الحكم فى قضاياها الخاصة أو العامة أو المصيرية من حرب أو سلم أو تقاليد وعادات وعبادات وغير ذلك من نواحى الجاهلية .

وقد يكون ذلك نتيجة طبيعية للحياة البدوية التى كانت فى ذلك الزمن البعيد قائمة على العصبية القبلية فى أغلب نواحى الجزيرة . والعصبية القبلية فى ذلك المجتمع كانت ضرورة حتمتها طبيعة الحياة الصحراوية لحفظ كيان الفرد والعشيرة .

والعرب قبل الإسلام لم يكونوا شديدى الاتصال بغيرهم من الشعوب ، ولم تكن رحلة الشتاء والصيف أو الاتصال بالغساسنة والمناذرة أو الوفادة على الملوك المجاورين إلا اتصالات فردية ، لم يكن لها التأثير الكبير الذى يحدث عادة من اتصال الأمم واحتكاك العقليات فتؤثر وتتأثر اجتماعياً وعقلياً وحضارياً . حتى اليهود الذين فروا من الرومان إلى داخل الجزيرة أو النصارى الذين وفدوا إليها ودعوا بعض القبائل إلى اعتناق دينهم لم يكن لهم تأثير يذكر فى العرب ، وأكثر من ذلك أنهم اتبعوا التقاليد العربية وساروا على النهج العربى فيما عدا الدين . ومن ثم ظلت الأمة العربية قبل الإسلام على حالتها القبلية كما كانت فى أعماق التاريخ ، وكأنها ضربت سوراً من العزلة عن العالم من حولها .

فى ظل هذه العزلة لم تتأثر الأمة العربية فى جاهليتها بالحضارات المجاورة لها من الفرس والروم ، ونتيجة للعزلة كانت لغتها العربية أقرب اللهجات التى تفرعت عن اللغة السامية الأم . وفى ظل هذه الروابط الاجتماعية القبلية كان الشاعر لسان القبيلة التى توفر له العدالة الداخلية والأمن الخارجى .

ويدل التراث الجاهلى على أن المجتمع العربى أنذاك حدد للشعر مهمته وهو التعبير عن الجماعة ، كما حدد للشاعر مكانته حين وكل إليه القيادة الأعلامية والمعنوية للقبيلة . لأن الشعر كان سلاحاً من أخطر الأسلحة فى حياة تنتصر فيها القوة ويتحكم فيها الغالب . والنتيجة الطبيعية لذلك كله أن يكون الشعر فى جملته وفى روحه وغايته شعر جماعة لا شعر فرد فى أكثر الأحيان .

وليس معنى ذلك أن المجتمع كان يلغى ذاته ويفقده شخصيته وانفعاله الخاص ذلك لأن أكثر الشعراء كانوا من قادة الرأى فى الجماعة فهم حين يعبرون إنما يعبرون عن رأى اشتركوا فى إصداره وتدبيره . فذاتيته لا تظهر منعزلة عن جماعته ، مثله مثل وزير الإعلام فى عصرنا الحديث يصنع السياسة مع الوزراء ثم يخرج ليعلن على الناس القرارات والبيانات . وظيفته فى القبيلة وظيفة عامة لا تهدر ذاتيته لأنه من صانعى الرأى الذى يعلنه للناس فى قصائده . وتحكم القبيلة فى أفرادها ومنهم الشاعر لا يلغى ذاتيتهم بل يجعلها فردية جماعية ويخضع الفرد للأكثرية ، وهى ما تسمى فى عصرنا بالديمقراطية ، ومن ناحية أخرى نجد القبيلة وهى تلزم الفرد بأن يخضع لقراراتها تلتزم هى من جانبها بحماية هذا الفرد وتهب لنجدته إذا مسه الضر دون أن يسألوه تفسيراً كما يقول شاعرهم :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... فى النائبات على ما قال برهاناً

والعرب أنفسهم كانوا يحسون بهذا الاندماج بين الذاتية والجماعية ويعبر عنها الشاعر حريث بن محفض المازنى فيقول :

ألم تر قومى أن دعاهم أخوهم ... أجابوا وإن يغضب على القوم يغضبوا

هم حفظوا غيبى كما كنت حافظاً ... لقومى أخرى مثلها إن تغيبوا

ومع ذلك فقد عرفنا أن هناك من الشعراء من خرج على القبيلة ورأى الجماعة ثائراً ومنافراً كالشعراء الصعاليك ، تنافرت ذاتيا تهم مع تحكم الجماعة فتبرأوا من

القبيلة أو تحامتهم قبائلهم . ومنهم من خرج على حكم الجماعة لأنه رأى العواطف قد دفعت بقومه إلى طريق الفناء ، فحكم عقله ودعا إلى طريق المعايشة السلمية بدلاً من الحرب ، كما فعل زهير مع أخواله الذبيانيين حين خرج على رأى جماعتهم وهو التمادى فى الأخذ بالثأر والترامى على الحرب ترامى الفراش على النار ، ودعاهم إلى السلم والسلام مع العبسيين . ثم أخذ فى تبشيع الحرب أمام قومه ودعا هرما بن سنان والحارث بن عوف إلى السعى فى الصلح ثم مدحهما حين أفلحا وتحملا الديات : وقصيدته التى خرج بها عن حكم الجماعة معروفة ومشهورة ويقول فيها :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضر إذا أضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثفالها ... وتلقح كشافاً ثم تحمل فتتئم

كذلك كان الشعر فى الحياة الجاهلية من ناحية مهمته الإعلامية ، وقيمته المادية عند القبيلة ، واعتزازها به وبرواية شعر شعرائها وإذاعته بين القبائل وحرصها على أن تلقنه صغارها ، وترديده فى المحافل والمجامع ، وتذهب به إلى الأسواق العامة لتسمعه الوفود المحتشدة من كل صوب وحدب . وكذلك كان اعتزازها بشاعرها الذى ينبغ فيها فتتقبل التهانى فيه ، وتحرص عليه وتحميه لأنه ثروات وقوة وسلاح لها .

ومن هنا يمكن أن نقول : إن الشعر فى المجتمع العربى الجاهلى كان ديوانهم الذى يحرصون على روايته وحفظه ، وعلمهم الذى لم يكن لهم علم أصح منه . الناس مشغولون به فى حلهم وترحالهم يروونه أنّى رحلوا أو أقاموا لما له من أثر السحر فى نفوسهم ، ولقدرته على استثارة عواطفهم ، ويرددونه فى محافلهم وفى حروبهم . ومن هذه الناحية يبدو الشعر وكأنه يمر بحركة ازدهار تصل به إلى المكانة المرموقة .

والحق أننا لو نظرنا إلى الشعر من هذه الزاوية ، زاوية أهميته ومكانته بين القبائل وذيوعه بين الناس وترداده له وحرصهم على روايته وحفظه ، لقلنا مع القائلين إن الشعر فى العصر الجاهلى كان فى أوج ازدهاره . ولكننا لو نظرنا إليه من زوايا أخرى ، وهى معانيه وفنيته ، لوجدنا الحكم عليه قد يختلف كثيراً .

---

(١) طبقات الشعراء ص ٤٥ .

فالسطحية التى يتميز بها الشاعر الجاهلى فى معالجة الموضوعات جعلته لا يحلل خواطره ولا عواطفه إزاء ما يتحدث فيه أو يتحدث عنه ، فهو لا يعرف التغلغل فى أعماق النفس البشرية ولا فى أعماق الأمور الحسية . و تتضح هذه النزعة فى خيالاته وتشبيهاته التى ينتزعها من عالمه المادى ولا يتعداه . وظلت الحسية والمادية هى المنبع الذى يستقى منه الشعراء أخيلتهم ، ومهما ترامى العالم الحسى من حولهم فهو عالم محدود . وحين حصروا أنفسهم فيه ضاقت عليهم المعانى فلم يتوسعوا فيها ، وداروا حولها حتى أوشكت أن تكون هى بعينها عند كل شاعر ، وكأنما اتفقوا عليها . أو كأنهم يسيرون فى جادتها لا يحيدون عنها . فأسنان المرأة تشبه عند أكثر الشعراء بالأقحوان وبنانها بالعنم ، والرجل يشبهونه بالبحر والأسد . . . . . وما يقوله ابن خزام فى بكاء الديار وينقله عنه أمرؤ القيس يسير على نمطه كل الشعراء وكل حماس لا يتعدى ما قاله عمرو بن كلثوم ، وما قاله طرفة فى الناقة صار نبراساً يكرره الشعراء و كذلك فى الأغراض الأخرى التى تناولها الشعراء لم يخرجوا فيها عن المعانى والأخيلة والتشبيهات الحسية التى يدور فى فلكها الشعراء جميعاً .

من كل ذلك يمكن أن نقول إن نزعة المحاكاة والتقليد والتكرار وضحت عند الشعراء فى السنوات الأخيرة قبل الإسلام . ضاق عليهم الأفق فى معانيهم ، وأخذ الشعر ينزل فى مستواه الفنى على الرغم من البراعة الواضحة فى إعادة المعنى بصياغة وشكل جديدة أو فى التوليد والاستنباط من المعنى الأصلى فيخرج فى صور طريفة .

و كان هناك عامل آخر ساعد فى إحكام الحلقة المقفلة على الشعر الجاهلى فى معانيه ، ذلك هو عزلة العرب حضارياً وفكرياً وأدبياً واجتماعياً عن الشعوب المجاورة لهم من الفرس والرومان والسريان . وإذا نظرنا إلى الآداب فى محيطها العالمى نجد أن كل أدب يسور نفسه بسور يعزله عن الآداب المعاصرة له ولا تنفذ إليه أفكار الآخرين ، ولا يطعم باتجاهات الآداب الأخرى ، ولا يحقن بدم جديد من الفكر والثقافة فمآله إلى الانحطاط ومرده إلى الركود أو الزوال .

وأقرب شىء إلينا هو الأدب الفرعونى القديم (وخاصة فن القصة والدراما فيه) فقد ظل الأدب الوحيد لا يختلط بغيره أو يتفاعل بأفكار جديدة من أمم أخرى ، فانقرض وزال . وكذلك حدث مع كثير من آداب الأمم الأخرى القديمة . ذلك

أن الأدب كالبحيرة العذبة إذا تركت زمناً أصابها العطن وصارت آسنة راكدة؛ أما إذا اتصلت بروافد أو منابع تأتيها بماء عذب جديد بقيت متجددة تطفىء العطش وتمنح الحياة . وبعزلة العرب عن الأمم الأخرى تعرضت بحيرة الأدب عندهم إلى الركود وانحدرت قيمه الفنية ، ونزلت عن مستواها الأول .

وعنترة العبسي كان أول من أحس من شعراء الجاهلية بهذا الخطر الفني على الشعر ، وبأن الشعراء يدورون فى حلقة مقفلة من المعاني والألفاظ نتيجة استعمالهم للحسيات وعزلتهم عن العالم، فأصبحوا يجترون أنفسهم ولا يأتون بجديد بعد أن استنفد السابقون المعاني واستهلكوا الأخيلة والصور ، وقد عبر عنترة عن إحساسه هذا كخاطرة سريعة بدأ بها معلقته حين قال : «هل غادر الشعراءمن متردم؟» ثم مالبث أن تركها إلى ترداد ماقاله السابقون قبله من بكاء الأطلال والدمن فى معلقته . وكأنه أطلق هذه الخاطره أملا فى أن تجد من يقف عندها وقفة المستبصر فيفجرها قضية كبرى .

وظل استفهام عنترة لايجد جواباً على الرغم من الفيض الزاخر من المعنويات والروحانيات التى امتلأ بها الشعر العربي فى العصور التالية حتى جاء شاعر النهضة العربية الحديثة محمود سامى البارودى فأجاب عنترة معارضاً مطلع معلقته بقوله :

كم غادر الشعراء من متردم ولرب تال بـز شأو مقـدم
فى كل عصر عبقرى لا ينى يفرى الفرى بكل قول محكم (١)

وكان احساس عنترة إحساساً غير واضح المعالم ، ولذلك مس القضية مساً خفيفاً، ووضعها متسائلاً ، وترك الإجابة عليها لمن يتأمل ويستقصى . وكان زهير ابن أبى سلمى هو ذلك المتأمل ، ففجر القضية وألقى عليها الأضواء وأعلنها صريحة على الملأ يتهم الشعر والشعراء فى هذه الآونة بأنهم فى مرحلة حرجة من الناحية الفنية لأنهم يجترون أنفسهم ويكررون مايقولون ، وذلك فى قوله :

ماأرانا نقول إلا معـــاراً أو معـاداً من قولنـــا مكروراً

وإذا قال ذلك زهير « فالقول مقالت حزام » . ذلك أننا عرفنا فى زهير الشفافية والتروى والحكمة ، حتى كان عمر بن الخطاب يعجب من شعر الحكمة

---

(١) لاينى : لا يزال . يفرى الفرى : يخلق الخلق الجديد . انظر باقى القصيدة فى كتاب محمود سامى البارودى للدكتور على الحديدى ط ٢ القاهرة ١٩٧٠م .

عنده ويتعجب من حكمه على الأمور ، ويقول « لو أدركته لوليته القضاء لحسن معرفته ودقة حكمه»[1]. فحكم زهير على الشعراء بأنهم يدورون فى حلقة مفقلة من المعانى المسبوق إليها والمعادة المكرورة حكم ينبئك به خبير ، ذلك لأنه فوق شفافيته وحكمته كان شاعراً من طراز ممتاز ، خبر صناعة الشعر وعرف أساليبها وتمرس بنماذج أوس بن حجر وغيره من فحول الجاهلية ، وذاع صيته فالتمسه الشعراء يتعلمون الشعر على يديه ، فنبغ منهم الحطيئة وولداه بجير وكعب . وفى الخصائص لابن جنى[2] ، وفى البيان والتبين للجاحظ[3] وغيرهما من أمهات الكتب الأدبية نجد الكثير مما قيل عن هذا الشاعر الفحل الصادق الحكم فى الحياة والشعر . ولكن لعل خير ماقيل فيه وفى حكمه على الشعر قول عمر بن الخطاب : « زهير شاعر الشعراء لأنه كان لا يعاظل فى الكلام ، وكان يتجنب حوشى الشعر ولم يمدح أحداً إلا بما فيه »[4] و قول الحطيئة : « خير الشعر الحولى المحكك » ويقصد زهيراً أستاذه فى الشعر وحولياته ، وقول الأصمعى : « زهير بن أبى سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر . وكذلك كل من جود فى شعره ووقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة كلها مستوية فى الجودة »[5] .

ومن ذلك وغيره مما قيل فى زهير يمكننا القول بأنه كان شاعراً فحلاً وناقداً نافذ البصيرة . وأكثر من ذلك أنه بلغ بمقدرته الفنية فى النقد أن وصل وهو يعيش فى القرن السادس الميلادى إلى مبدأ من مبادىء النقد الأساسية عند النقاد الكلاسيكيين فى عصر النهضة ، وذلك أن الأدب يتحكم فيه العقل ، وأن العقل يرادف الذوق والحكم السليمين . فالكلاسيكيون ، كما يقول ناقدهم الأكبر وواضع أسسهم النظرية « بوالو » فى مطولته المسماه « فن الشعر » ، يؤمنون بأن العقل هو الوسيلة الفعالة التى يرجع إليها الأديب ، ومن الواضح أن العقل الذى يرجعون إليه ليس العقل الموضوعى المنطقى البارد ، بل العقل الحساس القادر على الانفعال بما يؤمن به من رأى . ومن الواضح أن الاعتماد على العقل المنفعل فى النتاج الأدبى مرتبط أوثق الارتباط

---

(١) انظر كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ط الحلبى ص ٣٤٢
(٢) جـ ١ ص ٣٢٤
(٣) جـ ٢ ص ١٤
(٤) الأغانى جـ ١٠ ص ٢٨٩
(٥) الأصمعيات جـ ٢ ص ١٣

بطابع الاتزان ، فالعقل قلما ينساب إلى الشطط والإسراف[١] . وما أشبه ما قاله « بوالو» بما قاله الجاحظ فى « البيان والتبين » تعليقاً على صنعة زهير فى الشعر وبصيرته فى نقده : «من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتاً وزمناً طويلاً ، يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه ، اتهاماً لعقله وتتبعاً على نفسه ، فيجعل عقله زماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره إشفاقاً على أدبه وإحرازاً لما خوله الله من نعمته » [٢] .

ولعل فى ذلك ما يؤكد أن زهيراً حين قال قولته المعروفة :

ما أرانا نقول إلا معـــاراً   أو معاداً من قولنا مكـــروراً

لم يكن يقولها عفو الخاطر ولم يلقها على عواهنها ، بل قالها ببصيرة الناقد وحكم المستبصر من الفن الذى أجاده كشاعر وعرفه كناقد .

لابد من أن نسلم إذن بعد الأدلة السابقة ومن واقع الشعر العربى فى أواخر العصر الجاهلى بأن هذا الفن الأدبى كان يسير بخطى واسعة نحو مرحلة النكسة والانحطاط . وكان لابد لبحيرة الشعر التى أوشك ماؤها أن يأسن ويصاب بالركود والعطن من نبع جديد يزود الجسد الذى أصابه الهرم والركود بدم فيه عناصر القوة تدب فيه الحياة ويندفع فى شرايينه الشباب فيملأ السمع والفؤاد .

وكان الشعر العربى ذا حظ موفور ، فقد قيض الله له بظهور الإسلام فيضاً من الفكر الجديد والقيم السامية والمعانى التى لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، وسرى فى شرايينه دم قدسى من معين مقدس بعث فيه الفتوة والشباب ، واستحدث فيه ألفاظاً وتراكيب وصوراً لم تكن معروفة ، ومعانى دينية وروحية لم تكن معلومة ، واتسع أفق هذا الفن الأدبى ، فن الشعر ، سعة لم يكن للمتقدمين عهد بها ، فقد كسر الإسلام سور العزلة الذى ضرب على عرب الجاهلية ، وحطم حلقة المحسوسات الضيقة المقفلة التى كانوا يدورون فى داخلها ، ومنحتهم الثورة الإسلامية فيضاً من المعنويات سواء فى

---

(١) انظر الكلاسيكية للدكتور محمد مندور ص ١٥ — ١٨ .
(٢) انظر البيان والتبين جـ ٢ ص ٩

قيم الإسلام الروحية التى بينت للناس أنه دين البشر أجمعين ، وأنه الحلقة الأخيرة المكملة فى سلسلة الديانات السماوية والمتمم لما نقص منها « بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » ، وأنه دين العقيدة والعمل ، يؤمن بإله واحد ليس كمثله شيء . وأرسل رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ويطالب البشر بالإيمان بعالم ما وراء الطبيعة ، وما فيه من مخلوقات نعرفها سماعاً ولا نراها عياناً منها الملائكة والجن والشياطين ، وباليوم الآخر الذى يبعث فيه كل إنسان ليقدم حساباً على ما كسب واكتسب عدلاً منه سبحانه ، فمن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها . ثم رسم للناس طريق الاتصال بالله وتطهير النفس بالعبادات ، وحدد لهم معالم السلوك والأخلاق ، وحرم عليهم الفواحش ما ظهر منها وما بطن . وبهذه القيم الروحية فتح الإسلام آفاقاً واسعة أثرت اللغة العربية شعرها ونثرها ثراء نفاخر به نحن العرب أمس واليوم وغدا .

ورافد ثان من روافد الإسلام التى أغنت اللغة العربية شعراً ونثراً هو قيمه العقلية ، فقد اتجه إلى العقل كطريق للإيمان بالتفكير والنظر والإقتناع ، ودعا إلى العلم ليسير جنباً إلى جنب مع الروحانيات وليكون طريقاً لمعرفة الله ، ومن ثم فالعلماء هم الذين يعرفون الله حق المعرفة فيخشونه حق خشيته .

وبدّل الإسلام من قيم الجاهليين الاجتماعية ومنحهم قيماً أخرى تجعل من خوفهم أمناً ، ومن شقاقهم ألفة وتعاوناً ، ومن عدائهم براً وتعاطفا . قيم تسودها الأخوة والمساواة لا فضل فيها لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، وأكرم المسلمين فيها عند الله أكثرهم تقوى ورعاية لحدوده وتعاليمه . قيم تجعل منهم أمة مثالية فى علاقاتهم الفردية والأسرية وفى محيط المجتمع .

ومحا الإسلام كثيراً من عاداتهم وتقاليدهم الجاهلية التى لا تتفق مع النظام المستقر الذى أرسى قواعده الإسلام وهو نظام الأمة والدولة . فأخذ يحارب القبلية والانتماء إليها حتى لا يظل العرب متنابذين مفككين ، وأحل محلها فكرة الانتماء إلى « الأمة » التى يتحكم فيها سلطان الدين ويعلو على سلطان القبلية ، ويقول الله سبحانه وتعالى « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » . وأخذ القانون الإلهى والأحكام الشرعية تحل محل الأحكام القبلية وشعوذة الكاهن ،

وتنتقل الولاية على الفرد من القبيلة إلى الأمة والدولة ، فهى التى تعاقب المعتدى وتقتص من المذنب سواء أكان معتدياً على حق من حقوق الفرد أو الجماعة أو بحق من حقوق الله . وحارب الإسلام من قيمهم الاجتماعية ما لا تتفق مع العقل أو العدالة الاجتماعية ، كجنون التفاخر بالأنساب ، والغارات للسلب والنهب ، والمعاملة بالربا الفاحش ، ووأد البنات خوف العار أو الفقر ، وشرب الخمر والدعارة ، والأخذ بالثأر وحرمان المرأة من الميراث وإهدار حقوقها المدنية والأسرية . وفى كل ذلك كان يهدف إلى سعادة الفرد والأسرة فى نطاق المجتمع المحلى وعلى مستوى الأمة الإسلامية ليتحقق قول الله فيها « كنتم خير أمة أخرجت للناس » .

ولأن الإسلام دين ودنيا وعبادة وعمل جاء للبشر على يد بشر ، فقد دعا إلى التعايش السلمى وإلى السلام فى محيط المجتمع الإسلامى والعالمى ، فلم يدع إلى قتال إلا للدفاع عن الوطن أو الدين « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » ، « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » . وفى نطاق العقيدة احترم حرية الإنسان فى اختيار الدين الذى يعتنق بعد أن تبين الرشد من الغى فلا إكراه فى الدين .

ولأن الإسلام دين المثالية فى المعاملة والمعاشرة والتعامل بين الناس فقد عدل جوانب كثيرة من الأخلاق الجاهلية وصفاتها ، فرفض أن يكون الاندفاع إلى الشر خلق المسلمين كما يصفهم قريط بن أنيف :

قوم إذا الشر أبدى ناجزيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحداناً

وأبى أن يكون من صفاتهم الاعتداء والظلم كما يفخر بذلك عمرو بن كلثوم فى قوله :

لنا الدنيا ومن أمسى عليهـا ... ونبطش حين نبطش قادرينـا

بغاة ظالمين وما ظلمنـا ... ولكنـا سنبـدأ ظالمينـا

أو كما يقول زهير فى حصين بن ضمضم :

جرىء متى يظلم يعاقب بظلمه ... سريعاً ، وإن لا يبد بالظلم يظلم

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وبدل الإسلام صورة المثل الأعلى للإنسان من الطاغية الباغى الذى يظلم ويبطش بالناس ابتداء إلى ذلك الذى يبدؤهم بالحسنى ، ويرد الإساءة بالمغفرة « ادفع بالتى

هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » ،ومن المندفع الأحمق الذى يطير إلى الشر زرافات ووحداناً إلى من يكظم غيظه ويعفو ويغفر « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » ،ومن المتكبر الذى يصعر خده للناس صلفاً وتغطرساً إلى المسلم الذى يمشى على الأرض هوناً « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » ،والمتواضع فى غير ضعف « ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً » ،والذى يعفو عند المقدرة عن من ظلمه «وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله» ، وعدل من مقاييس الشجاعة فلم تعد فى الاندفاع إلى القتال لمجرد قيل الكماه ألا أين المحامونا ،بل أصبحت الشجاعة عنده فى الاحتكام إلى شريعته بين المتقاتلين «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتّى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين». ولم تعد مقاييس الأخوة أن يهرعوا إلى القتال معه دون تفكير وتبصر :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   فى النائبات على ماقال برهاناً

ولكن مقياس الأخوة صار فى الإسلام قول الله تعالى : « إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون » ، وقوله سبحانه وتعالى : « أشداء على الكفار رحماء بينهم» ،وقوله سبحانه «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان».

ومن ثم كان ظهور الإسلام هو النقطة التى بدأ منها مجد العرب سواء أكان مجداً أدبياً أم مجداً سياسياً أم اجتماعياً ، فقد تغير به المجتمع العربى وبدأ به طوراً جديداً مغايراً كل المغايرة للطور الجاهلى الذى سبقه سواء فى نزعاته وأوضاعه ونظمه أو غاياته من الحياة .

والركن الرئيسى الذى قامت عليه الدعوة الإسلامية هو تنظيم الشئون الدينية والدنيوية معاً للبشر عامة ، ولم تقتصر الدعوة على واحدة دون أخرى ،ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس جميعاً ليصلح مابينهم من علاقات وصلات ، كى يعيشوا حياة آمنة عادلة منظمة ،ويعلمهم فى نفس الوقت شعائر دينية قوامها التوحيد والعبادة ، لتصفو أرواحهم وتهدأ نفوسهم وتعمر بالإيمان بالله انتظاراً للدار الآخرة . وهذا معناه أن الإسلام كان ديناً ودنيا ،مسجداً ودولة ، وبمعنى آخر كان

يجمع بين السلطتين الروحية والزمنية . ومهما يختلف المستشرقون فى هذا الجانب الثانى أهو عقيدة دينية أم عمل مدنى فإن الواقع يؤكد أن الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاءه كانوا ينهضون بالجانبين معاً دون أن يفرقوا بينهما .

والنظام الذى استحدثه الإسلام ، وهو نظام الخلافة ، كان وليد الظروف التى نشأت إثر ظهور الإسلام . ومعنى ذلك أن الرسول الكريم كان ينهض بتوحيد القبائل العربية تحت لواء الدين أولاً والسياسة ثانياً .

أثر القرآن فى الأدب :

كان للانقلاب الدينى بالإسلام الذى مس حياة العرب من جميع وجوهها العامة والخاصة ، والذى غير الكثير من القيم الجاهلية روحية كانت أو عقلية أو اجتماعية أو سياسية ، والذى بدل من أخلاق الفرد ، وعدل من مقاييس المثل الأعلى للإنسان ، كان لهذا الإنقلاب أثر كبير فى الحياة الأدبية أدباً وأدباء . وكان كل تغيير أو تبديل أو تعديل رافداً يصب فى بحيرة الأدب فيغنيها بمعانيه الجديدة وقيمه المبتكرة فتزداد عذوبة وثراء .

ولئن كان الإسلام بقيمه وتعاليمه قد بعث فى الأدب العربى الحياة من جديد واستنقذه من الوهدة التى كاد يتردى فيها ، فإن القرآن الكريم قد ارتفع باللغة العربية فجعلها تسمو إلى الغاية . ذلك أن القرآن الكريم منذ اللحظة الأولى لنزوله قد أثار فى العرب حركة أدبية وفكرية معاً : ودعاهم إلى الالتفات إلى ما جاءهم من جديد فى أساليب التعبير والبيان ، وإلى ما احتواه من القيم والتعريف بالأديان ، فعلقت به الأفئدة وراقت لسماعه الآذان ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمضى فى قراءته حتى تخشع له القلوب وينصت إليه السامعون ، يستوى فى ذلك صحابته وأنصاره والمشركون وأعداؤه . وهذا الوليد بن المغيرة — وهو من ألد خصوم الرسول — بعد أن سمع الرسول يتلو جزءاً من القرآن فروع بسماعه واستولى على مجامع قلبه يقول : « والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وما هو بقول بشر » . ولم يسع الجاهليون ازاءه إلا التسليم بروعة أثره فى النفوس وفى العقول معاً . واعترف بلغاؤهم وأولو الفطنة منهم بأثره فيهم وتحيروا ، فمن قائل

إنه سحر ، ومن قائل إنه قول شاعر ، وفريق ظنه أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا .

والحق أن القرآن ليس شعراً موزوناً ولا سجعاً مقفى ، وإنما هو نمط خاص ونسيج وحده فصلت آياته من لدن حكيم خبير . هو قرآن ، ولا يمكن أن يسمى بغير ذلك ، فهو ليس بشعر وليس نثراً لأنه مقيد بقيود خاصة لا توجد فى غيره ، وهى قيود يتصل بعضها بأواخر الآيات ، وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة فى آياته ونسقه ، فصلت آياته بفواصل تطمئن عندها النفس ، وتجد فيها كل مايتصل بها من ألفاظ روحاً وعذوبة ، لاتغنى كلمة عن كلمة ولا مرادف محل مرادف له ، فهو نمط باهر بل هو نمط معجز فريد فى بابه لم يأت من قبله مثله ولن يأتى بعده مشابه له ؛ وأنى لأحد أن يقلده « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » ، « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » .

كان القرآن الكريم أمام العرب المثل الحى وموطن المحاكاة والتقليد فى كل مايريدون من مجالات القول . فقد بهرهم ببيانه المعجز وبلاغته السامية وحاولوا بادىء الأمر تقليده ففشلوا ، ثم آثروا أن ينضووا تحت لوائه فآمنوا به واقتبسوا منه ، وأصبح كتاب الله لهم المنبع والمصدر ، يحاكون لفظه ، ويحاولون تقليد أسلوبه ، فأخذ بيد اللغة العربية ، شعراً ونثراً وخطابة إلى الذروة التى بلغتها ، ونهض بها إلى المكانة التى احتلتها . والحق الذى لامراء فيه أن التطور الذى حدث للغة العربية فى العصور الإسلامية يعود أكثره إلى القرآن الكريم وذلك لأن القرآن الكريم قمة البلاغة ومعجزة الدين الجديد ، وهو فى نفس الوقت أثر فنى جميل بلغ من الرفعة أسمى ما يمكن أن ينتهى إليه أثر فى هذه اللغة ، وفوق ذلك فهو كتاب تنظيم وحشد لقوى الأمة العربية والإسلامية ، وتشريع للعالم بأسره .

وارتفاع مستوى القرآن الجمالى من ناحية الأسلوب ، وسموه من الناحية الفنية والمعنوية ، أراده الله أن يكون كذلك ليواجه به المبشر بالدين الجديد محمد النبى

المرسل المثل البلاغية الكبرى فى عصره من الشعر الجاهلى، وسجع الكهان، وفصاحة الخطباء . فلم يلبث أصحابها حتى أقروا بالعجز أمام المعجزة من الناحيتين المعنوية واللسانية ؛ ومن ناحية الحلاوة والطلاوة والأسلوب . والعرب قوم أصحاب قول وذوق رفيعين بلغوا بهما الغاية ، سمعوا القرآن فأخذهم بجماله ، وتدبروا معانيه فأدهشهم ما بين دفتيه من شريعة كاملة تحوى الصحيح من الشرائع السابقة وتكفلها التبقى مع الزمن صالحة لكل أمة وكل عصر .

وفى قول عبد القاهر الجرجانى فى كتابه « دلائل الإعجاز »[1] مايكشف عن جانب من بلاغة القرآن وإعجازه ، فمى رأيه أن القرآن معجز بنفسه، وتكمن بلاغته فى نظمه على هذا الأسلوب الذى نزل به ، لافى ألفاظه وحدها منفردة عن هذا النظم الذى جاء به ، ولا فى عبارته فقط تلك التى جاءت على ضرب من الوزن يعجز الخلق عن أن يأتوا بمثله . ولا يكفى — فى رأيه — لكى تقف على بلاغة القرآن أن تعرف معرفة إجمالية أن نظمه يفوق نظم الآخرين ، وتأليفه يمتاز عن تأليف المؤلفين ، ونسجه يسمو نسج البلغاء ، وصياغته ترتفع عن صياغة الفحول من الأدباء. هذه المعرفة الإجمالية فى رأى عبد القاهر لاتكفى للوقوف على سر إعجاز القرآن ، وكذلك لايكفى المعرفة بالفصاحة أن تصفها وصفاً مجملاً أو تقول فيها قولاً مرسلاً ؛ بل لا تكون فى معرفتها فى شىء حتى تفصل القول ، وتضع يدك على الخصائص التى تكون من نظم الكلام ، وتكون معرفتك بها معرفة الصائغ الحاذق الذى يعرف كل خيط فى النسيج ، وكل أجرة من الآجر الذى فى البناء البديع .

وهذه المعرفة تحتاج أناة وصبراً ، لأن ذوى العقول الراجحة يعرفون بها حجة الله ، وهى تفسير للعلم بتوضيح المزايا والخصائص ومن أين كثرت كثرة عظيمة ، واتسعت بحيث تجاوزت حدود البشرية ، وكيف تؤدى الألفاظ المحصورة والكلمات المعدودة إذا جاء بعضها فى أثر بعض معانى لا يمكن لبشر أن يصل إليها وحده ، ولطائف لا يحصرها العد ولا ينتهى إليها الإنسان[2] .

---

(١) انظر دلائل الاعجاز ص ٢٩ — ٣٣ ، ٢٩٤ — ٢٩٩

(٢) انظر المصدر السابق ص ٣١ — ٣٣

والحق أننا إذا حاولنا تعديد مظاهر إعجاز القرآن أو مآثره على اللغة والأدب فلن نفى كتاب الله حقه . ويكفى أنه المعجزة التى أخرست ألسنة بلغاء العرب وفصحائهم فى مجال التحدى . ونشرت أضواءها على مجالات التعبير لمن آمن وقرأ وانتفع ، فالقرآن سريعاً ماعلت كلمته لأن حكمة الله هى العليا دائماً ، وسرعان ما انتشر بين الأمصار المفتوحة ، فاقتبس الناس من تعبيراته وكلماته ونسقه ومن آياته فى ضروب الخطابة والكتابة وحتى الشعر . كل ذلك هيأ لثورة التغيير أو دفعة الازدهار فى تاريخ اللغة العربية .

(ب) موقف الاسلام من الشعر

أشرق الإسلام بنوره على العقول الجاهلية فأخذت الظلمة الكامنة فيها تتبدد شيئاً فشيئاً ، واستمع العرب إلى آيات الذكر الحكيم فتملك منهم السمع والفؤاد .وحمل محمدعليه الصلاة والسلام إلى الناس رسالة الإسلام ليهدى الناس إلى الصراط المستقيم ، وينظم شئون البشر الدينية والدنيوية ، ويرسم للإنسان مناهج السلوك فى معاملاته كفرد وكلبنة فى مجتمع متماسك البنيان ، ويبين الحلال والحرام والفضيلة والرذيلة دون لبس أو إبهام . كذلك كان الدين الجديد وتلك تعاليمه ،من اتبعها فقد اهتدى، ومن عصاها أو تجنبها فقد ضل وغوى .

وعلى هدى الأسس الإسلامية ، بدأت المقاييس الدينية تصبح مناط الحكم على كل أمور الحياة وظواهرها . « والأدب » يعمق فهم الحياة ، « والشعر » يرسم للناس عالم الرؤية الخارجى ويطلعهم على العالم الداخلى للفكر والشعور .فالشعر يرتاد بنا الحياة ويخلق بيننا وبينها علاقات جديدة من الفهم والمعرفة ؛ وتلك هى الغاية التى تسعى إليها الإنسانية دائماً . وإذا ارتاد بنا الشعر الحياة الإسلامية الجديدة، واستمد روحه منها ،وخلق بيننا وبينها علاقات قائمة على الفهم والمعرفة ، فلابد أن يكون روح الحياة ومنبع هذه العلاقات وأساس المعرفة والفهم هو الاسلام دين الحياة الجديد .

وإذا كان الشعر بهذه المثابة وعلى هذا النمط ،يستمد من الحياة الإسلامية مثله وقيمه فهو من الشعر فى الذروة، فى حكم الدين الجديد . أما إذا خالف هذا المنهج فمثله مثل كل الظواهر التى تخالف الدين كالمعاصى التى ترتكب . تلك هى النظرة التى نظر الإسلام بها إلى الشعر ، فمقياس الدين وحده هو المقياس الجديد الذى نقاس به أمور الحياة . فالأفكار والمعانى التى ارتضاها الرسول وصحابته من الشعراء المسلمين هى الأفكار والاتجاهات التى تلائم روح الدين الجديد سواء كانت روحاً دينية أم دنيوية ،والدين والدنيا يسيران فى طريق الإسلام إلى غاية واحدة هى صلاح العقيدة وصلاح الفرد والمجتمع ليسعد الناس فى الدنيا والآخرة .

ومن هنا نجد أن الإسلام وقف من الشعر موقفاً طبيعياً واضحاً كل الوضوح ؛ فالشعر وهو الفن الرفيع الذى يعد من مقومات الحياة لم يحظره الإسلام ، أو يقف منه موقف العداء . وما كان للنبي الذى يقول : « إن من الشعر لحكمة » ، والذى يعرف التأثير الكبير للشعر فى وجدان المجتمع العربى ، وعلى بينه من المنزلة الرفيقة التى يتمتع بها الشعر كوسيلة إعلام للدعوة الجديدة : ما كان له إلا أن يهتم بتلك الملكة الفنية التى اشتهر بها قومه وأحبوها ، ويشجع ذلك الفن الذى نبغ فيه العرب وهو الخبير بتأثيره فى نفوسهم والعالم بمدى فائدته فى نشر الإسلام .

ولقد عاش العرب سنين طويلة والأدب فنهم الأوحد ، ووسيلتهم التى لا نعرف أنهم كانوا يملكون سواها للتعبير عن وجدانهم ، ومن ثم جاءت معجزة الإسلام معجزة بيانية ، هى « القرآن » ، فكانت هذه المعجزة آية تقدير لمكان البيان فيهم ومنزلته عندهم بقدر ما كانت شاهداً على أن الإسلام لم يجىء ليعطل البيان ، بل أقر وظيفته فى المجتمع ، وأبقى لذويه ما كان لهم من قديم من شرف القيادة الوجدانية والتكلم بلسان الجماعة[1] .

ولو أننا نظرنا إلى الأمر نظرة موضوعية وحاولنا بالاستقصاء معرفة مكانة الشعر فى ظل الإسلام ، وذلك باستعراض كتب الأدب والتاريخ التى أرخت وكتبت عن صدر الإسلام ، لوجدناها تزخر بالكثير من الشعر الذى قيل فى تلك الفترة ، يعبر عن كل حدث من أحداث العصر منذ ظهرت الدعوة المحمدية ، ويصور الحياة فيها بدقة وفى صدق ، ولوجدنا فيها أن الشعر قد انقسم على نفسه تبعاً لانقسام العرب على أنفسهم إزاء الدعوة الإسلامية ، فريق وقف مع الرسول يدافع عن دين الحق بشعره ويهاجم أعداء الإسلام من الوثنيين المشركين ، وفريق ظل فى ضلالة القديم ينافح بلسانه عن الأوثان ويصد عن سبيل الله .

وواكب الشعر التاريخ والأحداث ، ورافق المعارك والوفود فى حياة الرسول وبعد وفاته . ففى يوم السقيفة كان شاهداً يسجل ، وفى محنة الردة كان سلاحاً مع

---

(١) انظر : قيم جديدة للأدب العربى القديم والمعاصر للدكتورة عائشة عبد الرحمن القاهرة ١٩٦٦ ص ٨٣

المسلمين المخلصين ومع المرتدين الظالمين. وفى عهد عمر كان الشعر يرافق الجيوش التى خرجت تحمل مشاعل الإسلام ، يحميهم ويبث فيهم القوة ، ويغنى لهم على أوتار الإيمان فيشمون رائحة الجنة تحت ظلال السيوف وهم ينشدون شعر الجهاد . وحين حلت الفتن بين المسلمين فى عهد عثمان سجل الشعراء آراء كل فريق . ومنذ أن تصدع الرأب بقتل عثمان وانشقت الأمة الإسلامية بين على ومعاوية ثم بينهما وبين الخوارج ، كان الشعر لكل ذلك بالمرصاد وكأنه عين التاريخ يشهد الأحداث ويعيشها ويعبر عنها ، ولكل فريق شعراؤه يدافعون عن رأيه بالحجة ويهاجمون من وقف ضده ، ولكل وجهة هو موليها .

من ذلك كله نجد أن الشعر لم يتوقف لحظة من الزمن فى الإسلام ، بل ظل يسير مع الأحداث لا يتخلف عنها . ولعل من يقرأ سيرة ابن هشام ، والطبرى ، والأغانى ، والإصابة فى تمييز الصحابة ، وأسد الغابة فى معرفة أحوال الصحابة ، والمفضليات التى جمعها المفضل الضبى ، والأصمعيات لعبد الملك الأصمعى ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام ، وغير ذلك كثير وكثير من أمهات الكتب التى حملت بين طياتها شعر هذه الفترة — لعل من يقرأ ذلك يتبين أن الشعر لم يتوقف ولم يضعف فى تلك الفترة ، بل يستقر فى نفسه أن راية الشعر ظلت مرفوعة يرفرف مع راية الإسلام .

وكان التطور الهام الذى حدث للشعر بعد البعثة المحمدية هو أن الإسلام طلب من المسلمين جميعاً ، ومنهم الشعراء ، أن يكونوا ملتزمين بالقيم الإسلامية التى يدين بها المجتمع المسلم ، وعمل على توجيه الملكات الفنية بجميعها توجيهاً جديداً يبعد بها عن الضلال القديم ، وعما يهيم به الفنانون من الغواية ، فيسرفون فى مجالات الشر والفوضى والعبث . ويدعوهم إلى القيم التى تقود إلى خير الفرد والمجتمع والبشرية فى الدنيا والآخرة . وأراد للشاعر ألا يكون شاعر قبيلة بل شاعر أمة تدين بالإسلام فمنحه ذاتية الشاعر ، ولم يفرض عليه قيدا إلا من داخل ذاته المؤمنة ومن وازع قلبه المسلم فلم يعد كشاعر القبيلة يدافع عنها بالحق وبالباطل رضى أو كره ، ولكنه أصبح غير محدود بنطاق أسرته وقبيلته ، بل يدور فى رحاب الأمة ، وليس عليه من سلطان إلا سلطان إيمانه ودينه .

والحق الذى لا مراء فيه أن الإسلام لم يمنع المسلمين أن يردوا حياض الشعر وأن ينظموه ، لأن قول الشعر والاستماع إليه وتقديره والإعجاب به يجرى من العرب مجرى الدم من العروق، والنبى العربى قد استمع إليه وأعجب به وقدره فى نطاق القيم الإسلامية، وروى عنه عليه السلام أنه قال : « إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة » وقوله : « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين » . وفى قصة كعب بن زهير حين بلغه إهدار النبى دمه بعد أن هجاه وضاقت عليه الأرض بما رحبت فقدم متلثماً بعمامة إلى المدينة وبايع الرسول على الإسلام ثم أنشد قصيدته :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

والتى يقول فيها :

نبئت أن رسول الله أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمول

مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم أذنب وقد كثرت فى الأقاويل

ثم يقول :

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الهند مسلول

فقال الرسول : « من سيوف الله » ثم رمى إليه بردته التى كانت عليه ، وهى التى بذل فيها معاوية لكعب عشرة آلاف فقال كعب ما كنت لأثر بثوب رسول الله أحداً[1] خير دليل على تقدير الرسول للشعر .

وحين ينشده النابغة الجعدى فيقول :

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلو كتاباً كالمجرة نيراً

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهراً

فيقول له المصطفى : « إلى أين ياأبا ليلى؟ » فيقول النابغة : إلى الجنة يارسول الله . فيعجب النبى بشعره وبروحه الإسلامية فيقول : « إلى الجنة إن شاء الله » . ثم إذا أنشده :

---

(١) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص ٧

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكـــدرا

ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد القوم أصدرا

فيزداد إعجاب الرسول به لأنه أخذ من القرآن معناه فى قوله: «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين» . ويدعو له بقوله لا يفضض الله فاك[1] .

وفى سماع الرسول الشعر فى مسجده وعلى منبره ، ودعوته شعراءه ليردوا على شعراء الوفود من القبائل ما يدل على تقدير الرسول لهذا الفن الإنسانى الجميل فى أمته ، شريطة أن يكون ملتزماً بتعاليم الإسلام الحنيف .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم على بينة من تأثير الشعر فى نفوس العرب فاتخذه سلاحاً من أمضى الأسلحة ينال به من أعدائه المشركين . وحين توالى هجاء عبد الله بن الزبعرى وضرار بن الخطاب وأبى سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب وعمرو بن العاص — وكانوا من المشركين وقتذاك — للرسول الأمين وصحبه قال قائل من المسلمين لعلى بن أبى طالب أهج عنا القوم الذين يهجوننا، فقال : إن أذن لى النبى فعلت ، فقالوا يارسول الله أئذن له، فقال الرسول الأمين : إن عليا ليس هناك ، أو ليس عنده مايراد فى ذلك منه ، ثم قال صلوات الله عليه : ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟فقال حسان : أنا لها ، فقال له الرسول : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ وكيف تهجو أبا سفيان وهو ابن عمى ؟ فقال : والله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين . وانضم إليه فى المعارك الشعرية كعب بن مالك الخزرجى وعبد الله بن رواحة الخزرجى ، وقد قال فيهم الرسول الكريم : « هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل » . وكان تعبئة الشعراء فى صفوف المسلمين تعبئة وجدانية تواجه خطر الشعر فى المعركة لأن الرسول القائد يدرك أثره العميق فى نفوس الفريقين المتعارضين .

ثم يأتى بعد ذلك كله من يزعم أن الإسلام وقف من الشعر موقف العداء بمهاجمة القرآن والرسول الكريم الشعر والشعراء ، وفريق آخر يدعى أن العرب

---

(١) الشعر والشعراء جـ ١ ص ٢٤٨

تشاغلت عن الشعر فى صدر الإسلام ولهيت عنه ، ولم يعودوا يشغلون به بعد أن ملأ القرآن والجهاد عليهم حياتهم .

والذين زعموا أن الإسلام وقف من الشعر موقف العداء . أو ادعوا أنه هاجمه واستصغر شأنه ، أو أن الشعر ضعف بدخوله فى نطاق الإسلام . أو أن العرب تشاغلت ولهيت عنه بالقرآن والجهاد قد استندوا فى زعمهم إلى أمور منها :

أولا : مهاجمة القرآن للشعراء فى قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا » (الشعراء آية ٢٢٤) . والحق أن الآية الكريمة تحمل الرد على هؤلاء المدعين ، لأنها فى إطار الالتزام بالقيم الإسلامية هاجمت نوعين من الشعراء : النوع الأول . الشعراء المشركون ، ومعروف أن هذا الصنف من الشعراء كانوا يندفعون بحكم حمأة الشرك والضلال إلى كل مايخالف الإسلام . وكانوا حرباً على الرسول ودعوته ، يهجونه ويثبطون من عزيمته . ويؤذونه بألسنتهم وقبح هجائهم . والفريق الثانى . الشعراء الذين دخلوا الإسلام شكلاً ومظهراً بألسنتهم . لكنهم ، فى الواقع والحق ، ضالون ومضلون . كالمنافقين ، لم يؤمنوا بقلوبهم ولم يعملوا الصالحات ولم يذكروا الله سراً وعلانية ولم ينتصروا للحق والإسلام ويقفوا للدفاع عنه فى فترة نشر الدعوة والدفاع عنها .

وذلك ما فهمه الرسول الكريم وصحابته من الآية الكريمة وهم خير من فهم القرآن وطبق شرائعه . ومن ثم اتخذ الرسول الكريم شعراء يعبئون الطاقة عند المسلمين ، ويدافعون عن الإسلام بألسنتهم ويقولون وروح القدس معهم . وكان عليه السلام يعجب بمراثى الخنساء لأخيها صخر ، ويدعو للنابغة الجعدى بألا يفض الله فاه ، ومن توعده الرسول الكريم وأهدر دمه يتخذ من الشعر وسيلة استرضاء للعفو عنه فيعفو الرسول العربى بعد سماع الشعر ، ويزيد حلماً وتعطفاً فيخلع عليه أفضل جائزة ، وهى بردته المباركه . وغير ذلك كثير من أعمال الرسول وصحابته التى تدل دلالة قاطعة على أن الإسلام لم يقف من الشعر موقف العداء .

ويقول أبو زيد : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقول الشعر لقوله عز وجل : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » ولكن كان يعجبه[١] .

ويروى أن عمر بن الخطاب مر بحسان بن ثابت وهو ينشد الشعر فى مسجد الرسول فقال : أرغاء كرغاء البكر ؟ فقال حسان : دعنى عنك يا عمر ، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد فى هذا المسجد من هو خير منك ، فما يغير على ذلك . فقال : عمر ، صدقت[٢] . وكان أبو السائب المخزومى وله ما له من فضل فى الدين والعلم يقول : أما والله لو كان الشعر محرماً لوردنا الرحبه كل يوم مراراً[٣] .

ثانياً : مهاجمة الرسول الكريم للشعر فى قوله : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً » . والحقيقة المقررة أن الحديث الشريف يفسر القرآن ويوضح ما فيه من قيم وعبادات ، والحديث بهذه الصفة إنما ينصب ذمه ومهاجمته على الشعر المجانب الحق والمتنافى مع تعاليم الدين وغير الملتزم بالقيم الإسلامية . ويؤكد ذلك رواية أخرى للحديث جاءت على لسان السيدة عائشة رضى الله عنها تقول فيها « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً هجيت به » .

ولو أننا أخذنا الآية والحديث بالفهم السطحى الذى اتخذه الزاعمون لكان هناك تناقض بين ما يقوله الله سبحانه وتعالى والرسول الكريم وبين ما يفعله الرسول وصحابته . وحاشا للصادق الأمين وصحابته الأكرمين أن يقولوا مالا يفعلون ، أو أن يفعلوا ما هاجمه الدين .

ثالثاً : لم يؤثر عن الرسول الكريم أنه تعلم الشعر قبل البعثة أو بعدها ، بل نهى عن قوله .

ثم جاءت آيات كثيرة تباعدما بين الرسول والشاعرية وما بين القرآن والشعر ، وذلك كله يدل على مهانة الشعر والشعراء فى نظر الإسلام ومعاداتهما من الآيات الكريمة

---

(١) جمهرة اشعار العرب ص ٣١ (المطبعة الرحمانية القاهرة ١٩٢٦) .
(٢) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص ١٠
(٣) المصدر السابق ص ١٢ . والرحبة : الموضع الذى تقام فيه الحدود على المذنبين .

قوله تعالى «وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين » (يس ٩٦) . « بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر ؛ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » (الأنبياء ٥) . « ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون » (الصافات ٣٦). « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين. أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين» (الطور ٣٠ — ٣٤) . « إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون » (الحاقة ٢٩ — ٣٠) .

ولعلنا لو تدبرنا الحكمة الإلهية فى حفظ الرسول من نظم الشعر قبل البعثة وبعدها لازددنا إيماناً بأن الرسول الكريم كان يؤهله الله لحمل الرسالة فى مجتمع عربى يقدس الشعر والبيان . والمعجزة الكبرى للرسول كانت معجزة البيان . ولو أن الرسول قال الشعر لاختلط مع مرور الأيام بالقرآن الكريم ، ولالتبس شعره والقرآن على الناس ، ولدخل فى القرآن ما ليس فيه أو أخرج منه ما جاء على وزن الشعر . ولكن صرف الله له عنه وإصرار الرسول وامتناعه حتى عن رواية الشعر أو إنشاده وضع حداً فاصلا لما كان يمكن أن يحدث من اللبس والزيف ، كما حدث فى الحديث الشريف . ولعلنا ندرك أن هناك آيات شريفة ينطبق عليها بعض الأوزان الشعرية التى قال على وزنها الشعراء ، ومن ذلك قوله جل شأنه وحاشا أن يكون نمطاً من الشعر : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » (الرمل) . « من تزكى فإنما يتزكى لنفسه » (الخفيف) . ولكن ذلك الكلام الموزون قد يأتى فى كلام الناس العادى . والشعر هو ما قصده الشاعر أن يكون شعراً .

وسبب آخر قد يكون موضحاً موقف الرسول من امتناعه عن قول الشعر ، وذلك أنه لو قاله لوجب أن يبرز فيه ، ولا يمكن أن يبرز فيه — فى نظر أدل عصره الذين يدعوهم إلى الإسلام — إلا إذا سار على نهج فحولهم من الشعراء ، فيقول فى جميع الأغراض من هجاء مقذع ، وفخر كاذب ، وتشبيب فاضح ، وخمريات وهيام فى كل واد من الضلالة ، وما تلك سبيل الهداية ولا طريق النبوة . وأنى لنبى أن يجمع بين مقاصد النبوة من الإيمان الحق والفضيلة والمثل الأعلى فى السلوك والخلق والحق وبين ما يهيم به الشعراء فى وادى الغواية .

ولو كان الرسول شاعراً لنسب العرب فضيلة حجته البالغة وجوامع كلمه إلى تأثير الشعر ، ومن ناحية أخرى سوف ينسبون بلاغة القرآن وإعجازه البيانى إلى ما يظنه أهل ذلك العصر من همس الشياطين فى أذان الشعراء ، أو من وحى الجنى الذى يرافق كل شاعر ، كما يقول أحدهم :

إني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر .

والحق أن الآيات الكريمة إنما تؤكد نفى الشاعرية عن الرسول حتى لا يظن أن رسالته نوع من الرؤى والخيالات ، ودفعاً لما قد يظن أيضاً من أن القرآن شعر من نوع جديد جاء على لسان شاعر .

رابعاً : زجر عمر بن الخطاب حسان بن ثابت حين سمعه ينشد الشعر فى مسجد الرسول ، وكانت الخطابة والكتابة تحدثان فى المسجد دون حرج . ولو أننا عرفنا السبب الذى من أجله زجر عمر حسان لتأكد لنا اهتمام المسلمين بالشعر ومدى سلطانه عليهم . فقد كان حسان ينشد مناقضات الأنصار ومشركى قريش قبل الإسلام ، فزجره عمر حتى لا تهيج الفتنة بين المهاجرين والأنصار ، ومن ثم كان زجر عمر حسان ، لا لأنه ينشد الشعر ؛ فقد كان ينشد من هو خير منه فى المسجد ، ولكن زجره كان لنوعية الشعر الذى ينشده ، وهو شعر يضر بالمسلمين . ولو اطلعنا على القصة بكاملها[1] لوجدناها تنتهى بقول عمر للمسلمين من الأنصار « إني قد كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً دفعاً للتضاعن عنكم ، فأما إذ أبوا فأنشدوه واحفظوه » . وعمر نفسه الذى يزجر حسان لموقف من المواقف هو نفسه الذى يتحدث إلى وفود القبائل عن شعرائهم ، ويروى الأبيات من شعرهم رواية الحافظ الناقد . بل ربما قضى الليل ساهراً حتى الفجر يصغى إلى الشعر ثم يطلب تلاوة القرآن . وكان يبعث إلى بعض عماله ليسأل عن الشعراء المخضرمين وما أحدثوه من الشعر فى الإسلام[2] . وكان يسأل القبائل عن شعرائهم فى الجاهلية ، وكتب إلى أبى موسى الأشعرى يقول : مر من قبلك يتعلم الشعر ، فإنه يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب . [3]

---

(١) الأغانى جزء ٢٠ ص ١٨٩ ، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٦٠
(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٣٠
(٣) العمدة جـ ١ ص ١٠

خامساً : انصرف لبيد بن ربيعة عن قول الشعر بعد إسلامه ولم يقل إلا بيتاً واحداً هو :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى كساني من الإسلام سربالا

ومن قائل بل هو قوله :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

ويقال إن عمر بعث إلى واليه على الكوفة أن يسأل لبيداً عما استحدثه في الإسلام من الشعر فتلا لبيد سورة البقرة وقال : أبدلني الله هذه في الإسلام خيراً منها [1] .

والواقع أننا لو نظرنا إلى ديوان لبيد[2] لوجدنا فيه شعراً كثيراً قاله في الإسلام. ولوجدنا قراءته للقرآن الكريم قد هذبت من لفظه. وأدخلت عليه كثيراً من الطلاوة ولوجدنا للمعاني الإسلامية صدى في شعره والروح الإسلامية ماثلة في تضاعيف أبياته التي قالها بعد إسلامه .

سادساً: قال ابن خلدون في مقدمته : « انصرف العرب عن الشعر أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي وما أدهشهم من أساليب القرآن ونظمه ، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا ، ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ، ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر وخطره . وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه . فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه[3] .

ولو أننا نظرنا إلى كلام ابن خلدون نظرة مجردة لوجدناه متناقضاً ، ينقض آخره أوله ، وإلا فكيف نوفق بين أنهم انصرفوا عن الشعر وأخرسوا عن نظمه وبين سماع الرسول الكريم له وإثابته عليه ؟ ومن ناحية أخرى كيف نفهم معنى انصرافهم عن الشعر وخرسهم عنه مع أن التاريخ يثبت أنهم لم يتوقفوا عن إنشاده ، وقد اتخذ الرسول الكريم لنفسه شعراء يدافعون عن الإسلام ويدعون له ، وكانت الوفود تأتي إليه ومعها خطباؤها وشعراؤها فيرد عليهم خطباء الرسول وشعراؤه . ومن ناحية ثالثة كان هناك شعراء معسكر المعارضة للإسلام من المشركين وفيهم الشعراء الذين هاجموا الإسلام ورسوله الكريم .

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٣٠
(٢) تحقيق احسان عباس .
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٢٧

أما إذا نظرنا إلى ما قاله ابن خلدون فى ضوء تفسيره للظواهر الاجتماعية — وهو منشىء علم الاجتماع — فلعله كان ينظر إلى الأمر نظرته إلى ظاهرة اجتماعية، هى أن الجديد المبهر يستأثر بالانتباه زمناً ويأخذ بالألباب حيناً حتى يتعوده الناس فيأخذ به من يأخذ ويتركه من شاء، وهى ظاهرة نراها كل يوم حين يظهر أمر مستحدث بيننا، والأمثلة كثيرة لاتحتاج إلى توضيح.

سابعاً: قول ابن سلام يردد كلام عمر، كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه، ثم يزيد عليه فجاء الإسلام وتشاغلت عن الشعر العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس الروم، ولهت العرب عن الشعر وروايته؛ فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه كثير[1].

ولعلنا لو أخذنا قول ابن سلام على لفظه لوجدناه مخالفا للواقع الذى تثبته كتب الأدب والتاريخ والسير والمغازى التى تحمل بين طياتها شعراً كثيراً قيل فى صدر الإسلام، ولعله من فضول القول أن نثبت بعد ما تقدم كيف كان الشعر حركة دائبة لا يتوقف فى حياة الرسول وبعده. ولو تصفحنا كتب السير والمغازى لوجدنا الجهاد نفسه كان داعية لقول الشعر بين المسلمين. لكن الحقيقة أن ابن سلام لم يأت بقوله السابق وهدفه الأساسى إثبات قلة الشعر أو اختفائه فى صدر الإسلام، بل أراد أن يدلل على أن الشعر العربى القديم قد ضاع أكثره وذهب مع ريح الصحراء، وطوته يد الزمان؛ وذلك لأنهم حفظوه عن طريق الرواية ولم يدونوه، والرواية من شأنها أن تسقط الكثير من الشعر بفعل النسيان أو انقراض الطبقة الحافظة، ولكنه أخطأ فى التعبير وتزيد فيه.

ونفس ابن سلام يروى فى طبقاته أن عبد الله بن رواحة قال: مررت بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى نفر من أصحابه فأصخب القوم: ياعبد الله بن رواحة، فعرفت أن رسول الله دعانى، فانطلقت إليه مسرعاً، فسامت، فقال: هاهنا، فجلست بين يديه، فقال كأنه يتعجب من شعرى: كيف تقول

---

[1] طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٢٢

الشعر إذا قلت ؟ قلت أنظر فى ذلك ثم أقول . قال : فعليك بالمشركين . فهل يعد ذلك تشاغلا عن الشعر ، أم أنه تقدير له كوسيلة للدعاية والدفاع عن الإسلام ؟ وابن سلام نفسه يروى قصة كعب بن زهير وإهدار النبي دمه لأنه هجاه بشعره ثم مجيئه متنكراً إلى الرسول وتأمين النبي له ، ثم يروى قصيدته « بانت سعاد » وفيها قدم كعب اعتذاره للرسول الكريم وطلب منه العفو ؛ وتعرض للمهاجرين يمدحهم فى قوله :

إن الرسول لسيف يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول
فى عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف ... عند اللقاء ولا ميل معازيل
لا يقع الطعن إلا فى نحورهم ... ومالهم عن حياض الموت تهليل

وحينئذ نظر الرسول الكريم إلى من كان فى مجلسه من المهاجرين وكأنه يستحسن ما قال فيهم ويدعوهم إلى سماعه . فإذا ماعرض كعب بالأنصار مقارناً إياهم بالمهاجرين وجعل من نصيب الأنصار التلميح بالجبن والقصر لغلظتهم عليه ورغبتهم فى القصاص منه لتعرضه لرسول الله بالأذى والهجاء حين قال[1] :

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ... ضرب إذا عرد السود التنابيل

حينئذ غضب الأنصار وتألموا وأنكر عليه المهاجرون هذا التلميح ، وقالوا : لم تمدحنا إذ هجوتهم ، ولم يسر عن الأنصار غضبهم ولم ينل رضى المهاجرين عنه إلا حين مدح الأنصار بقصيدته التى قال فيها :

من سره كرم الحياة فلا يزل ... فى مقنب من صالح الأنصار[2]
الباذلين نفوسهم لنبيهم ... يوم الهياج وسطوة الجبار[3]

---

(١) الانكاس جمع نكس : وهو الضعيف الذليل . كشف : جمع أكشف وهو الذى ينكشف فى القتال ويهزم . ميل : جمع أميل وهو الجبار . معازيل : جمع معزال . وهو الذى ينعزل فى الحرب .

(٢) المقنب : جماعة الخيل والفرسان .

(٣) القصيدة والقصة فى طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٨٣ وما بعدها . والشعر والشعراء لابن قتيبة جـ ١/٨٦

ولو أن العرب حقاً قد تشاغلوا عن الشعر كما يقول ابن سلام ، ولهى المسلمون عن روايته بالجهاد والغزو ، وفقد الشعر نفوذه على الوجدان العربي وعواطف المسلمين ، فهل كان الرسول يهدر دم كعب من أجل شعره الهجائي ؟ و هل كان الرسول يكافئه ببردته لمدحه ؟ وهل كان الأنصار يغضبون من بيت قاله معرضاً بهم ؟

ثامناً : يقول ابن قتيبة فى كتابه الشعر والشعراء : إن الشعر نكد بابه الشر ، فإذا دخل فيه الخير ضعف ولان ، هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره .

والحق أن الدعوى التى ادعاها ابن قتيبة من أن الشعر نكد بابه الشر دعوى غير مقبولة إلا فى عصر الجاهلية ، لأن الشعر قد عبر فى كل العصور الإسلامية وخاصة فى العصر العباسى والأموى بقوة المنطق وبصدق العقيدة وحتى من المنطلق الفلسفى والخلافات العقائدية تعبيراً خرج به من البيئة المحلية الصحراوية إلى الآفاق العالمية من حيث الفكرة والمضمون . فشعراء الخوارج والشيعة وشعراء البصرة والكوفة والشعراء السياسيون فى عصر بنى أمية ونقائضهم ، وأبو العتاهية ، وأبو العلاء والبحترى ، والشريف الرضى ، والمتنبى ، وغيرهم كثيرون وكثيرون ممن كانوا يقولون الشعر فى الخير والحق والعقيدة والمبدأ ، هل نعتبر شعرهم ضعف ولان ؟ لو نظرنا إلى أشعارهم من حيث الإطار العام للقصيدة ، لوجدناها خيراً من قصائد الشعر الجاهلى لأنها جارت العصر فهذبت من حوشيها وبدأت تسيطر عليها وحدة العاطفة . ولو نظرنا إليها من حيث المضمون ، لما اختلف اثنان فى أن القضايا التى أثارها الشعراء المسلمون أفضل بكثير من القضايا التى أثيرت فى العصر الجاهلى .

ولعل ابن قتيبة قد نظر إلى حسان بن ثابت خاصة واتخذ منه فى فترة محددة مقياساً يبنى عليه قاعدة حكمه على الشعر كله . وذلك المقياس الفردى مجانب للصواب من الناحية العلمية ، لأن الحكم لا يكون صحيحاً إلا إذا جاء نتيجة الاستقراء والاستقصاء ، وليس نتيجة حالة فردية . وحسان بن ثابت وغيره من الشعراء الذين عاصروا الجاهلية ردحاً طويلا من الزمن ثم لحقوا بالإسلام ممن نسميهم بالمخضرمين ،

لهم حكم خاص بهم ، ذلك أن الشعر لا ينبع من العقل والمنطق فيمكن تحويله وتغييره بين عشية وصباح كاقتناع المرء بفكر محدد ومنطق معين ، ولكنه نابع من الوجدان ووليد تقاليد فى النسج والنظم والأسلوب والنسق ، وذلك يحتاج وقتاً حتى يتشرب الشاعر التقاليد الجديدة ويستوعب وجدانه الفكر الجديد ليصدر عنه ؛ ومن ثم كانت الفترة الأولى لإسلام حسان وأقرانه من الشعراء المخضرمين هى فترة التحول الوجدانى ، وكان لابد أن تستوعب عواطفه وأحاسيسه الدين الجديد وقيمه ، ويتمثله فى قلبه ويعيش معه فى وجدانه ، ويتخلص من كل تقاليد الجاهلية خاصة وأنه عاش ٦٠ سنة فى الجاهلية ، ومن الصعب أن يتغير المرء حتى فى عواطفه بسرعة بعد هذه السن ، ولذلك كان لابد لحسان وغيره ممن على نمطه من الشعراء المخضرمين من وقت يستوعبون فيه الحدث الجديد ، أو يتمثلون الثورة فى القيم كلها فى وجدانهم .

وقد يكون ما حمل ابن قتيبه والأصمعى على الحكم بأن شعر حسان لان وضعف فى الإسلام هو ما نسب إلى حسان ومادخل شعره من الوضع ، فقد انتحل له شعر كثير تشيع فيه الركاكة والضعف حتى درجة الهلهلة . لكنا لو استعرضنا شعره الموثق الذى قاله فى الإسلام وكذلك شعر من كان على شاكلته من المخضرمين ، نجد التحول فى شعرهم يتجه شيئاً فشيئاً إلى أن يكون إسلامى الشكل والمضمون والتقليد . ومع ذلك فإنا نجد فى شعرهم أول الإسلام قوة لا تقل عن قوته فى جاهليتهم حسب الموضوع و الغرض الذى يقولون فيه، فحسان مثلا يقول متحدياً أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان أبو سفيان يقول الشعر فى صفوف المشركين أول الإسلام[1] :

هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء
فإن أبى ووالده وعرضى ... لعرض محمد منكم وقاء
أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

وعبد الله بن رواحه يقول مهاجماً قريشاً المشركة :

نجالد الناس عن عرض فنأسرهم ... فينا النبى وفينا تنزل السور
وقد علمتم بأنا ليس غالبنا ... حىّ من الناس إن عزوا وإن كثروا

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى : جـ ٤ ص ١٧٩

يا هاشم الخير إن الله فضلكم على البرية فضلاً ما له غير
فثبّت الله ما أتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالذى نصروا

وذلك كعب بن مالك يهدد ثقيفاً بعد الانتصار على يهود خيبر فيقول :

قضينا من تهامة كل وتر وخيبر ثم أجممنا السيوفا[1]

والمتصفح لديوان حسان وشعر عبد الله بن رواحه وغيرهما من الشعراء المخضرمين فى صدر الإسلام يجد المعانى الإسلامية قد أخذت تزحف على شعرهم وتنبعث من نسيجه حتى أصبحت إسلامية خالصة . فقصيدة حسان فى رثاء الرسول الكريم ورثاء أبى بكر أو رثاء عمر ، وقول الشعراء المسلمين فى حروب الردة وهم يجهزون على المرتدين . أو قولهم وقد خرجوا للجهاد فى سبيل الله يفتحون فارس والشام ومصر وينشرون الحق والإسلام ، نجده شعراً قوياً تثبتت فيه القيم الدينية وظهرت فيه المعانى الإسلامية . ولم يعد الشر هو باب القوة فى الشعر بل استبدل به الخير والحق والإسلام فبعثت فيه القوة الحقيقية للفن الرفيع .

إذن من الظلم والخطأ البين أن نقول : إن الإسلام وقف من الشعر موقف العداء أو أنه شغل الناس عنه، أو أضعف سلطانه على وجدان العرب، أو جعله يفقد قوته من حيث أنه فن فجعله يلين ويضعف ، أو أنه وقف نشاطه .

ذلك لأنه زيادة على كل ما تقدم ، كان ينشد على كل لسان ، وساعدت الأحداث الإسلامية على ازدهاره لا على خموله ، فقد كان هناك شعراء الدعوة الإسلامية ، وهجاءوالوثنية ، وشعراء المرتدين ،وشعراء الفتوح ،وشعراء الفتن بين المسلمين، وشعراء الانفصاليين والخوارج والفرق الإسلامية .

ومن ثم نجد أن الإسلام أذكى جذوة الشعر وأشعلها ، لأنه أمدها برصيد لا ينفد من المعانى الجديدة والقيم الإسلامية ، وأخرج الشعر من الحسيات إلى المعنويات الفنية التى لا حد لها من القيم الروحية والعقلية والاجتماعية والإنسانية .

---

(١) باقى القصيدة فى ابن سلام ص ١٨٤